للتاريخ :

يوم من أيام بغـــداد

للاســـتاذ علي الطنطاوي

[لعل ذكرى هـذا اليوم تهز بغداد ، دار الأعزة الصيد ، فيكون فيها لمصر وقضيتها يوم مثله ...]

طلعت جريدة (البلاد) على أهل بغداد ، صباح اليوم الأخير من آذار (مارس) ١٩٣٩ ، وفي صدرها مقالة (لكاتب شامي أستحي أن أسميه) ، ليست كالمقالات ، جملا توصف ، وكلمات تؤلف ، ولكنها قلب يتفطر ، وديناميت يتفجر ، عنوانها : « يا غازي . يا غازي . يا غازي » . وفيها :

« يا غازي ، تدعوك الأيامى الثاكلات ، يا غازي يناديك اليتامى المظلومون ، ياغازي يستنصرك الضعاف العزّل ، والعجائز الركّع ، والأطفال الرضّع . يا غازي يهتف باسمك الشباب الذي يواجه بجسمه المصفحات ، وبصدره الدبابات ، ويحارب الدولة الطاغية الغاشمة ، لا سلاح له إلا إيمانه ، وأمله بالله ، ثم بالعرب ، وبك يا مليك العرب ، يا غازي !

يا غازي : دعوةَ غريق ينادي منقذه القوي !

يا غازي : هتافَ مريض يدعو طبيبه الآسي !

يا غازي : إهابةَ مشرف على اليأس بالسيد المأمول !

يا غازي : صرخةَ الدم ، واللغة ، والدين ، والمجد ، والجوار .

يا غازي : المدَد ! المدَد !

يا غازي !

لقد نادت امرأة واحدة ، في سالف الدهر : « وامعتصماه » فاهتزّ لها هذا العرش : عرشك . وماج لها هذا الشعب : شعبك وخرجت الجيوش : جيوش بغداد ، فلم ترجع إلا وفي ركابها المجد والنصر . فمن غيرك ، وغير العراق لهذه الأمة التي حملت البلاء ، ورأت الشدائد ، وشاهدت ألوان الموت ، وخانها الحليف ، ونقض عهدَه لها القويُّ ، وجرّد دباباته الضخمة ، ومدافعه وعتاده ، ليحارب بها النساء والأطفال والشيوخ ؟ من غيرك وغير العراق لهذه الأمة التي تنادي اليوم : « واعراقاه » . « واغازياه » !

فقم يا أيها (المعتصم) ، لبّها على (الخيول البلق) فان كتاب التاريخ أعدُّوا صحفهم ، وأمسكوا بأقلامهم ليكتبوا الفخرة مرة ثانية للعراق ، ولملك العراق !

إن الأمة التي أحبَّت فيصلا ، وأحبها فيصل تناديك اليومَ يومَ الخطب يابنَ فيصل !

إن الشعب الذي بايع فيصلا ، هو على بيعته لك ، فهل تضيع شعبك يا أبا فيصل ؟

إن القصر الذي كان يسكنه أبوك ملكاً ، والذي كنت تلهو في حدائقه طفلا ، هو اليوم مقر عدو العرب ، منه يصدر الأمر بتقتيل رجالهم ونسائهم وأطفالهم ، يسكنه اليوم العدو الذي بغى على فيصل ، وسرق منه عرشه . فأنقذْ تراث فيصل ، من عدوّ فيصل ، وعُدْ أنت إلى قصر فيصل ، يابن فيصل !

يا غازي ؟

الشباب الذين سقطوا في شوارع دمشق شهداء البغي ، ماتوا وهم يهتفون باسمك ياغازي . العجائز تلقين أبناءهن المصرعين على أرض الوطن ، وهنّ يهتفن باسمك يا غازي .

يا غازي ، كم من طفل وطفلة ، عدا عليهم الظالمون ، فتلفتوا حولهم يفتشون عن المنقذ الذي حفظوا اسمه ، ورفعوا رؤوساً يسيل من جراحها الدم ، وأشاروا إلى الشرق بأصابعهم الصغيرة المخضبة بالنجيع الأحمر ، ورددوا اسمك : يا غازي !

ياغازي ! بك علقوا الآمال ، ومنك ينتظرون المون ، أتدع هذا الشعب بين براثن الوحوش يعبثون بكرامته وأمجاده وحياته وكرامته كرامة العرب ، وأمجاده أمجادهم ، وحياته حياتهم ؟

أتتركهم يموتون ، وبغداد تستروح رائحة الربيع العطر ، وتستمع إلى جرْس النشيد الحلو ، وتنام على فراش النعيم ؟

يا مليكي !

هذا يوم من أيام التاريخ له ما بعده ، فلا يقولنّ التاريخ : « يا ليتهم نصروا الشام في وقت محنته ! يا ليتهم لم يدعوه رهن الحديد والنار » !

الشام في كرب شديد ... الشام في ضيق !

لقد ضجّ لما يعاني الشام قبر محمد ، يا سليل محمد !

لقـد اهتزّ الحطيم وزمزم ، ومادت جبال مكة ، يا حفيد شريف مكة !

يا مليك العرب : الشام يدعوك . الشام يستجير بك . الشام يهتف باسمك : « يا غازى . يا غازى . يا غازى ! » .

* * *

نشرت المقالة فى أشهر جرائد بغداد ، فألهبت شبابها ، وشباب بغداد كوّنت أعصابهم من نور ومن نار ، وخلقت أيديهم من الندى ومن الحديد ، وملئت قلوبهم نخوة وسماحة ، وأترعت شجاعة وكرماً .

فإذا حاربوا أذلوا عزيزاً وإذا سالموا أعزوا ذليلا
وإذا عز معشر زال يوما منع السيف عزهم أن يزولا

وشباب بغداد ، جند العروبة حيثما كان للعروبة أرض ، وحماة الحمى ، وأسد الغاب . إن أطلقت رصاصة فى الشام ، أو فى مصر ، أحسوا أزيزها . وإن أشعلت فيها نار وجدوا حرّها . وإن سقط شهيد كان عندهم مأتمه ، وإن أصيب جريح كان فى ضلوعهم ألمه . وشباب بغداد إن غضبوا الإعصار الجارف ، والبحر الطاغى ، والصواعق المنقضة ، والموت . هل من الموت مهرب ؟ وشباب بغداد إن رضوا النسيم الرخىّ ، والربيع الطلق ، والسلسبيل العذب ، والحياة . هل فى الوجود أحلى من الحياة ؟

وعلم شباب بغداد ، أن ديار الشام فى خطر ، وأن (حلفاءها) قد نقضوا عهدهم لها ، وعادوا كما كانوا أعداءها ، فأسروا كرامها وسوّدوا لئامها ، وجرعوها من (مدنيتهم ...) الصاب والحنظل المسموم ، وأن شعب الشام قد لبس لأمة الجهاد ، ونزل إلى الشوارع يجالد البارود بالحجارة ، ويرد الدبابات بالخناجر ، حتى سقطت الدور على أهلها فغدت لهم مقابر ، وامتلأت بالأبرياء السجون ، واشتد الخطب وعظم البلاء ، وقل الناصر ، وانقطع المدد ...

... واشتعلت الحماسة فى صدور شباب بغداد ناراً ، ومشت هذه النار فى قلوب الشعب ، فلم تمض ساعات حتى صار حديث الشام حديث الناس فى كل مكان ، فى القهوات ، والطرقات ، والمنازل والمدارس ، ولم يعد الطلاب يصغون إلى درس ، أو يستمعون إلى مدرس ، أيشتغلون بالمفاضلة بين الفرزدق وجرير ، وبحساب بعد القمر ومساحة سيبريا ، والشام غارقة فى دماء بنيها ، عابقة برائحة البارود ، رازحة تحت أثقال المدافع ، تطؤها نعال الفرنسيين والسنغال ؟ ... أيطلب الشكولاتة من لا يجد الرغيف ؟ أيقرأ الأشعار من تأكل بيته من حوله النار ؟ إنهم يريدون أن يطيروا إلى الشام ، ليطبقوا فى ساحاتها ما تعلموه فى دروس الفتوّة من فنون القتال .

وفوجئ الناس فى المساء ، بإذاعة هذه المقالة من محطة الملك الخاصة ، فى قصر الزهور ، فلما انتهى المذيع من تلاوتها ، كانت مفاجأة للناس أشد وأبعد ، حين سمعوا صوت الملك غازى الذى يعرفونه ، يقول :

« لبيك . لبيك يا سورية ! » .

فكانت هذه الكلمة سحراً ماضياً جعل كل منزل فى بغداد ثكنة ، وكل قهوة معسكراً ، وكل رجل جندياً شاكى السلاح ، ينتظر الأمر بالهجوم على الجن والإنس والعفاريت لا يهاب شيئاً ، ولا يخشى أحداً ، مادامت الحرب حرباً مقدسة لنصرة الشام ، والقائد الملك الشاب الحبيب

وكانت حال لا توصف ، ولا تصوّر ولا تمحو الأيام أثرها .

***

ودعا ناظر الثانوية المركزية فى صبيحة الغد نفراً من المدرسين العراقيين والشاميين منهم كاتب المقال ، وأفهمهم سراً ، (ولا ضير اليوم فى إذاعة هذا السر) أن الحكومة (حكومة السيد نورى السعيد) ترغب فى مظاهرة احتجاجية على فرنسا ، وأنه ترك لنا أمر تنظيمها ، فكان ذلك أحب إلينا من خزائن المال نعطاها ، وأسمى المراتب نمنحها ، وخرجنا فأخذنا فى عملنا .

وكان فى بغداد وضواحيها عشر ثانويات ، فاقتسمنا ثانوياتها العشر . ينفرد كل منا بإغداد طلاب مدرسته للمظاهرة ، وتفننا فى هذا الإعداد ، واستبقنا فيه ، وكنت امرأ أكتب ولكنى لا أحسن بيتاً واحداً من الشعر ، فبحثت عمّن ينظم لمدرستنا نشيداً لهذا اليوم فلم أجد ، فنظمت أنا أنشودة مهلهلة النسج ، ضعيفة التأليف ، لكنها خارجة من القلب وتقع فى القلوب ، ثم وضعت لها أنا ... لحناً لفقته من ألحان الأناشيد التى كنت حفظتها قديماً ونسيها الناس ، وعمدت إلى لوحات صنعناها من القماش ... فكتبت عليها كلمات تعبر عن الحقيقة التى امتلأت بها

نفوس البغداديين مثل :

« الله جعل العرب أمة واحدة فلن تفرقهم يد مخلوق »

« نحن جند الوحدة العربية ، إننا سنكتبها بالدم »

« من تمدى على دمشق فقد اعتدى على بغداد »

« لبيك لبيك يا سورية ، إننا آتون »

« يا سورية ، لن تضامى وشباب العراق فى الوجود »

وسهرت مع الطلاب فى كتابتها وتلوينها ، وأنا الذى لم يمسك من قبل (ريشة) قط .

***

ولم أنم تلك الليلة بل كنت أنتقل من مكان إلى مكان ، حتى إذا أصبحنا بكرت إلى ساحة الاجتماع ، وهى الساحة الفيحاء بين دار الكتب والمتوسطة الغربية ودار المعلمين العليا فوجدتها تعج بالطلاب من كل مدرسة ، وكلهم بلباس الفتوة لا يمتاز طالب منهم من طالب ، فكيف أجمع طلاب مدرستى وأصفهم ؟

وطفقت أصرخ ولا سامع ولا مجيب ومن يسمع النداء فى هذا المحشر الذى جمع فيه عشرة آلاف طالب متحمس كلهم يصيح ويتكلم ؟ ثم ألهمنى الله فكرة فدعوت عريفاً من عرفاء الطلبة ، ميزته من شرائط الفضة على ذراعه ، فانتصب أمامى ، وحيانا ووقف وقفة عسكرية ينتظر منى الأمر . فقلت له : صف هؤلاء الطلاب . فأعاد التحية وقال : حاضر . وانصرف ، وأنا أعجب منه كيف يقول : « حاضر » ، وقد عجزت من قبله عن ذلك ويعجز عشرة من أمثالى ! وإذا به يدعو طالباً معه بوق ، فينفخ به ، فتقع المعجزة ، ويعم الصمت ، كأن المتوكل قد طلع بضوء وجهه ...

... ... فانجلت تلك الدجى وانجاب ذاك الستر

ثم ينفخ فيه أخرى : فإذا هذه الخلائق كلها ، تغدو صفاً طويلا صامتاً مرتباً . وقدمنى إخواننا فقلت فيهم خطبة . ومشينا ، حتى إذا بلغنا أوائل ميدان باب المعظم ، قابلتنا مواكب الشعب الهائلة آتية من حى الفضل وتلك الأرجاء ، فتدانى الجبلان ، والتقى البحران ، فعادا بحراً واحداً ، تلتطم أمواجه ، وتعلو أثباجه ، بحراً من الناس ملأ باب المعظم وأفواه الشوارع المفضية إليه ، والأرض البراح من هنا ومن هناك . وقام الخطباء فى كل مكان فلم يبق فى اللغة كلمة تمجيد إلا قيلت للشام ، ولا لفظة تحقير إلا سيقت لفرنسا ، ولا جملة تعبر عن القوة والإيمان والاستعداد إلا ألقيت على الناس ، ولاشىء يهز القلب ويحرك العزائم إلا كان ثم مشى هذا البحر . وإلى أين تمشى البحار ؟ والشوارع قد سدت بالناس ، والناس على الأرصفة وفى الشبابيك وعلى الأسطحة . وفى كل مكان هتاف ونداء ، فالطلاب ينشدون ، والعامة يحدون والنساء يزغردن ، والتكبير والتهليل ، والمواكب تمتد ، والخلائق تتوافد ، حتى حملت بغداد كلها فى شارع الرشيد من باب المعظم إلى الباب الشرقى ، وكان يوم ما رأيت له مثيلا قط .

***

إننا لم نخض فى ذلك اليوم ملحمة ، ولا شهدنا معمعة ، ولا أرقنا لعدو دماً ، ولم نجاوز فيه الكلام ، ولكنه كلام جعل كل فتى من هؤلاء الفتيان بطلا ، وترك فى نفسه ذخيرة تمده بالقوة دهراً ، وصب فى نفسه من العزة ما جعل نفسه أسمى من النجم ، وأكبر من الدنيا . كلام ولكنه كان أساساً من الصخر الراسى فى صرح الوحدة العربية غداً والإسلامية بعد غد . كلام ولكنه أرهب العدو وخلع قلبه ، وردّه عن قصده ، ودفع من عدوانه . كلام ولكن بمثله تحيا الأمم ، وتبنى النهضات ، وتكتب تواريخ المجد . كلام ، وإن من الكلام لفعالا من أعظم الفعال ، وقوة من أمضى القوى ، ومجداً من أسمى الأمجاد .

***

إن الشام يذكر لك يا بغداد فى عرس الاستقلال ، ما أسديت إليه فى بؤس الاحتلال ، فهلا اتخذت عند مصر يداً مثلها تذكرها لك يدَ الدهر ؟

إن مصر ، يا بغداد ، أختنا الكبرى فى المروءة ، وقضية مصر قضيتنا ، ووادى مصر وادينا ، وعدو مصر عدونا ، وإننا إن نخذل مصر نخذل بلادنا ، وإلا نكن معها نخُنْ أمتنا .

يا بغداد ، يا ذات المجد ، يا مثوى البطولة ، يا عرين الآساد ، إن مصر قد عدا عليها العادون ، وكشر لها عن أنياب الذئب ، من كان يجيئها أيام الحرب فى فروة الحمل ، سائلا يطلب منها العون والمال . إنه يريد الآن أن يفرق بين أسودها وأسرها ، وأعلاها وأدناها ويسرق منها نصف واديها ، أفتنامين يا بغداد فى سِرْب الأمان ، ومصر فى الشوارع تصارع الذئاب ؟

يا بغداد ! اليوم يومك ، يا بغداد !!

(القاهرة) علي الطنطاوى